تاريخ الثقافة المطبوعة

■ شكّل اختراع المطبعة ثورة كبيرة في سياقه لا تقلّ آثارها عن الثورة الرقمية التي يعيشها العالم اليوم. وإذا كانت قد صدرت كتب عديدة عن سيرة حياة مخترع المطبعة »يوهان غوتنبرغ« وعن »الثورة« التي أحدثتها على صعيد الحضارة الأوروبية والعالمية، فإن »ريشار ابيل« الأخصائي بعالم النشر يكرس كتابه »ثورة غوتنبرغ« لتقديم تاريخ كامل لما يسميه »الثقافة المطبوعة«.

يقوم »ريشار ابيل« بتحليل السياق التاريخي الذي عرفه سياق اختراع المطبعة في القرن الخامس عشر، وتحليل الآثار الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي ترتبت على ذلك. وهو يركز تحليلاته بشكل خاص على المجال الثقافي حيث لا يتردد في القول بأن »ثورة المطبعة كانت لها آثار ثقافية راديكالية« على أوروبا والعالم.

وهو يعود إلى العصور الوسطى كي يشير إلى أن الكتاب بصيغته الأولية على جلود الحيوانات التي تطورت فيما بعد إلى الشكل الحاضر لم تظهر سوى في القرنين التاسع والعاشر حيث حلت محل الكتابة على »لفائف ورق البردي«. لم يكن ذلك بمثابة تغيير في الشكل فقط، ولكن أيضا في »طريقة تنظيم المعرفة« وفي »الوضع الجسدي للقارئ«.

وظل الكتاب في أوروبا حتى عام ١٤٥٠ منسوخاً باليد، خاصة بواسطة الرهبان في الكنائس الذين كانوا يقومون بجمع النصوص. وكان إنجاز كل كتاب يتطلب مئات ساعات العمل. بالتوازي كانت الغالبية العظمى من الكتب المنسوخة ذات طابع كنسي، وجميعها تقريباً كانت باللغة اللاتينية، لغة الكنيسة. لكن اعتباراً من القرن الثالث عشر أخذت فئات قليلة بتعلم، خاصة بين رجال القانون والأطباء. لكن تلك الظاهرة بقيت هامشية جداً.

وفي عام ١٤٥٠ اخترع يوهان غوتنبرغ المطبعة. عنى ذلك الانتقال من الكتاب »المنسوخ« إلى الكتاب »المطبوع«، وكان ذلك أيضاً بمثابة الإعلان عن الانتقال من العصور الوسطى إلى عصر النهضة. باختصار كانت فترة »تحولات كبرى في العديد من الميادين«، كما يشرح مؤلف هذا الكتاب. وفي عصر النهضة الأوروبي برز في إيطاليا أولا ثم في فرنسا تيار فكري وفني دعا للعودة إلى قراءة النصوص الكلاسيكية القديمة من لاتينية ويونانية التي أصبحت متوفرة بأعداد كبيرة بفضل المطبعة.

ثم أسهم اكتشاف أميركا »العالم الجديد« في عام ١٤٩٢ على السفر وعلى »تسويق« الكتاب وبالتالي إلى زيادة انتشار المطابع والكتب المطبوعة. ولم يكن ذهب أميركا وفضتها بعيدين عن ازدهار كل أنواع التجارة في القارة الأوروبية »القديمة«.

وعلى قاعدة الازدهار الاقتصادي والتجاري ازدهرت في أوروبا أيضاً طبقة اجتماعية جديدة تمثلت في البورجوازية »الثرية والمثقفة« ما وجد ترجمته في وجود قارئين جدد. وازدادت الحاجة إلى الكتب وبالتالي انتشار الكتاب المطبوع. بهذا المعنى كان القارئ وراء صناعة الكتاب وليس الكتاب وراء صناعة القارئ. من الأفكار التي تتردد في تحليلات هذا الكتاب التأكيد بطرق مختلفة أن اختراع المطبعة سمح لشرائح كثيرة جديدة ولوج عالم القراءة، وبالتالي انتشار أكبر للأفكار ولمظاهر الاحتجاج. من هنا برز تدريجياً حرص السلطات العامة على فرض رقابة صارمة على المطابع باعتبارها تمثل خطراً على السلطة السياسية. من هنا أيضاً انتشرت »المطابع السرية« كإحدى النتائج »السياسية« المترتبة على »الثورة« التي قام بها »يوهان غوتنبرغ« في عالم الطباعة والنشر.

«اليمن» محطتي الأخيرة

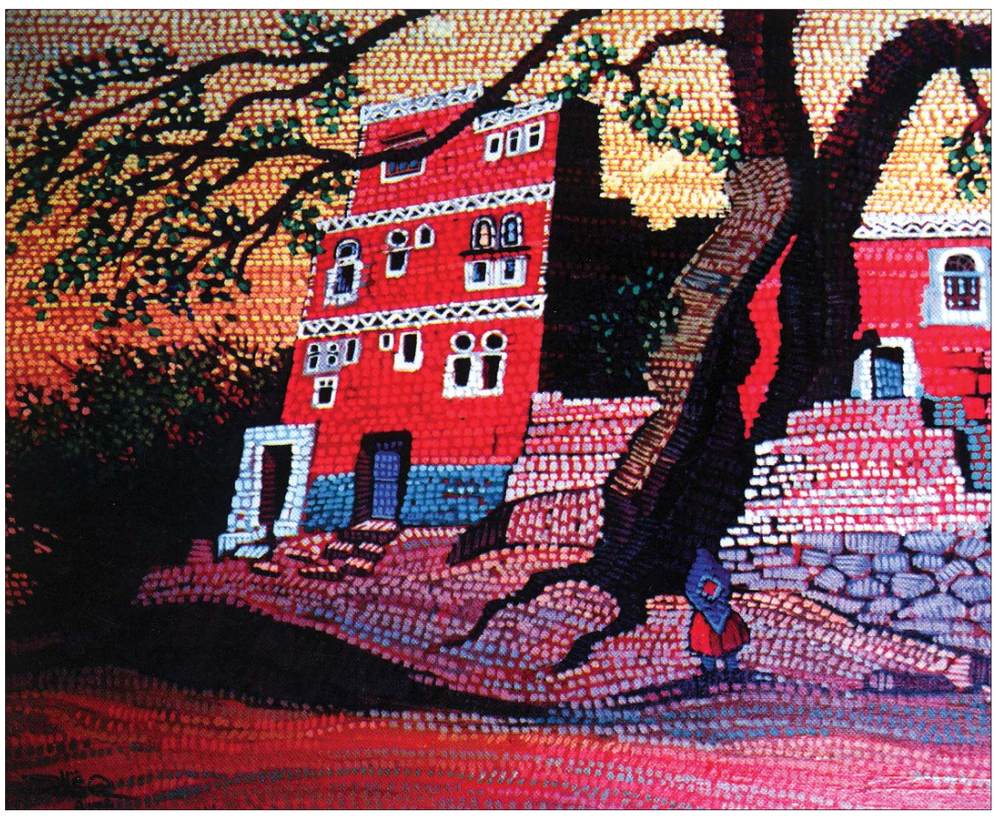

حسين البكري

.. منذ بداية غربتي وحياتي أشبه بقطار دولي سريع وقد كنت أجلس جنب نافذته لأستمتع بالمناظر الخلابة وقد وجدت القرى ومشاهدها تشدني للنزول لشراء بعض الفاكهة والخبز الساخن اللذيذ من أفران أهل القرى الطيبين. إضافة إلى الأجبان الطازجة المصنوعة من ألبان وأبقار المزارع وأنا كما عهدت نفسي أعشق أكل الجبن الأوروبي من عند القرويين .. غير أن المكتوب على الجبين لا بد أن تراه العين نعم آلاف الصور الرائعة تفد من وراء نافذته وبأقصى سرعة والسبب أن القطار الذي أركبه سريع وعديم التعقل! وأنا إلى اليوم لا أدري ما سبب عدم المبالاة في التعامل مع الواقع الأفضل.. إني أشعر اليوم بالندم وأن ما كنت امتلكه من مال كان هو السبب لأنه على الأقل كان يعطيني الأمل الزائف ، لقد تمنوا عليّ عدم الرحيل والبقاء معهم كي أصبح شابا جديدا له زوجة تحبه وبيتها الريفي يطل على البحر من ارتفاع شاهق .. بصراحة أنا كنت تواقا للبقاء حيث الحب والمال وجنسية أوروبية جديدة تحترمها كل مطارات بلدان العالم وأشد ما أثار دهشتي أني انحزت إلى وثيقة سفري الخاصة باللاجئين الفلسطينيين والتي حرمتني من دخول أي بلد أجنبي أو عربي إلا بقدرة الله وحده فأنا لم أكن قادرا على الحسم واتخاذ القرار الصحيح وإلى هذه الآونة مازلت حائرا بأمر وثيقة السفر تلك؟

نعم لقد كان قطار حياتي يتنافس مع دقات قلبي في السرعة وفجأة توقف القطار في محطة الأحبة والذكريات فظهرت لي بفستان وجهها المكسو بالأحزان قائلة: مسافر وحدك!! وأنا؟؟ أمي وأختي الصغيرة المريضة (سيمون) وكل الأصدقاء يسلمون عليك ويناشدونك العودة إليهم هيا انزل الآن واترك قطارك السريع.

سامحيني أنا عاجز تماما عن اتخاذ أي قرار مدت يدها وبعد أن سلمت ومسحت على كتفي بأناملها الناعمة همست ودمعتها على خدها: أقول لك وداعا سأقول إلى اللقاء ، قد نلتقي يوما على الشاطئ وقد رحل القطار.

ومرت ساعات وحين تعطل قطاري وتوقف نزلت وتعرفت عليهم بنات وأولاد من قلب أوروبا جاءوا وتعارفوا فهم ورغم فقرهم كانت لهم حياتهم الخاصة حياة مفعمة بالسكينة بكل ألوان الحب ولم أكن بالمغفل كي أصدقهم القول حول جنسيتي حتى لا يتركوني ويغادروني فأنا أعلم بأن لا أحد في أوروبا يحترم سكان الشرق إما لتخلفهم وإما هو الشعور الأوروبي السائد والممتلئ بأنفاس الكبر والاستعلاء وبعد أن ودعتهم قدموا لي بعض الهدايا البسيطة وكانت غالية عندي هكذا هي صورة حياتنا فنحن على الدوام من أعماقنا متحفزون لمقابلة أشخاص على شاكلتنا قادمين يحبوننا ونحن نحبهم رغم أن كلاً منا لم يلتق بالآخر من قبل ، ومن النافذة تحدثت معها بلغة العيون وقبل أن يغادر همست على مسمعي: أنا أنا فلسطينية و... وعلى الفور حاولت إيقاف القطار على الأقل كي أسألها ماذا تفعلين يافلسطينية في هذه المدينة الرائعة وهل أنت وحدك .وو.

ولكن الرياح أحيانا تأتي بما لا تشتهي السفن ، أنا فقدتها غصبا ورغم أنف حلمي الصغير، ومضت السنوات وقطار حياتي السريع يأخذني من مكان جميل إلى رصيف أجمل لأكتشف بعد فوات الأوان أني انتقلت إلى قطار العالم الثالث الذي من طبعه الاندفاع بما فيه من أعطال باتجاه واحد أي ذهاب بلا عودة لتحول حياتي إلى ضجيج وعذاب بعد أن أخرجوني منه عنوة ورموني بقوة فوق رصيف الاهانات والآلام فانكسرت أضلعي وحين دخلت المحطة الأخيرة وهي (اليمن) عملت كاتبا صحفيا بصحيفة (الثورة) اليمنية وكانت حياتي معها وفيها سلسة مفعمة بالسلام والحرية وكم أنا متألم وحزين على ما آلت إليه أحوال يمننا الحبيب سائلا المولى سبحانه وتعالى أن يحفظه ويحميه من كل شر ومن الفتن المصطنعة.